

## ثقافة الصورة في زمن التقنية

أ. كلثوم زينة

جامعة الوادي - الجزائر

## الملخص:

حين يغدو كل شيء مرئيا/بصريا، نقول بسيادة الصورة في الفكر المعاصر، ونعلن رسميا تنصيبها لغة جديدة للثقافة والأدب، معترفين لها بكونها الأبلغ تأثيرا والأوسع تلقيا، متجاوزة حدود المكان والزمان، إنها الثمرة الناضجة للتقنية وتكنولوجيا الاتصال، لكن هل تتعايش الصورة مع الكلمة أن تكون بديلة عنها؟

## Abstract :

When everything comes visible/visual the picture becomes dominant in the contemporary thought and a new language for culture and literature. We acknowledge its big effect and wide range cast transcending time and place limits. It is the mere product of communication technique and technology. Nevertheless does picture cohabit with speech or does it supersede it?

التطور في الحقيقة سمة طبيعية في الحياة، بل هو ضرورة صحية للاستمرارية، لذلك شهدت الإنسانية منحنى تصاعديا عبر مراحل تاريخها، في اتجاه المزيد من الاكتشافات والتطورات العلمية والتكنولوجية، وحتى في مجال العلوم الإنسانية، وهو ما حقق للوجود الإنساني أبعادا مختلفة وفتح أمامه أفقا أرحب لتحقيق ذاته وفهم كينونته. وما زاد في وتيرة التطور هو سرعة الاكتشافات وسيولة المعلومات وتراكمها، واتساع مجال التواصل والتبادل، حتى صار الحديث عن المجتمع العالمي (القرية الكونية) حديث الساعة وموضوعها، واتساع مجال التواصل يستلزم آليات تواصلية جديدة، ولغة عابرة للحدود تتفاوت الفروقات اللسانية والثقافية، هذه اللغة ليست بالجديدة بقدر ماهي ضاربة بجذورها في عمق التراث الإنساني؛ إنها الصورة.

لا أحد ينكر أقدمية الصورة وتاريخها في منظومة التعبير والتواصل البشري، فهي أقدم حتى من المشافهة، ذلك لارتباطها الوثيق بالخيال والطقوس العقدية للإنسان، وقد رافقته خلال مشوار تطوره الفكري والاجتماعي والاقتصادي المستمر، مرتبطة به ارتباطا وظيفيا تصاعديا، لتبلغ ذروتها في التأثير والسيطرة مع تقاطعها بالثورة التكنولوجية، فقد أحدث هذا التزاوج "ثورة رقمية كبيرة نقلت الإنسانية من مجرد الاهتمام بصناعة الصور إلى عصر الشاشة، وكسرت الحواجز، وفتحت الأبواب على مصراعها للتطور المهبول للصور، وما ترتب على ذلك من تغيير جذري في حياة الناس بتحويلها إلى فضاء مرئي معروض للعموم، وفي نمط رؤيتهم للعالم ولبعضهم، وأدخله ذلك في بلبلية في منزلة الثقافة التقليدية والتراث والعادات"<sup>1</sup>

## ثقافة الصورة: لغة العصر:

شكلت مطبعة غوتنبرغ انعطافاً/ تحولاً جذرياً في مشوار الوعي الإنساني وفي مسيرته الفكرية ومنظوماتها الإبداعية، فقد قلبت الكتابة/ الطباعة جميع المسلمات والمفاهيم والأذواق داخل المنظومة الفكرية للإنسان، ومنها شهدت الحياة تحولات في جميع ميادينها السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية، ولعلنا لا نجواب الصواب إذا قلنا أن ما تشهده الإنسانية اليوم يفوق مرحلة غوتنبرغ بأشواط كبيرة، فكل ما حققته المطبعة من تحرير فكري، وانتشار معرفي، ووعي ديني للفكر الإنساني، وما منحته من ديموقراطية الكلمة (المعرفة) لا يقاس بما أنتجه العصر التكنولوجي، وينتجه باستمرار فلا " يخفى ما حققته الطباعة بفضل غوتنبرغ من طفرة أشاعت الحرف وروجت المكتوب، وعممت أو ساهمت في تعميم المعرفة التي كانت حكرًا على دوائر مغلقة، لكن طفرة الطباعة لا تقاس اليوم بالطفرة الرقمية التي طالت الصورة، كل هذا للقول بأن للصورة أثر لا يقاس بالنسبة لنظام المعرفة الحديث، ولكن الأمر يتطلب استكمال الصورة ورهاناتها عوض الاقتصاد على إحصاء مناقبها وحسناتها مما تحفل به من مؤلفات كثيرة"<sup>2</sup>. لقد جعلت المطبعة من الكلمة مشاعاً، وحررتها من سيطرة رجال الدين والسياسة لتصبح ملكاً للجميع دون استثناء، وليوصل صداها أعماق النفوس، وتفصح عن مكنوناتها ومكبوتاتها بكل حرية وسرعة، لكن الثورة الجديدة، ثورة تكنولوجيا المعلومات تجاوزت حدود اللغة المكتوبة المطبوعة، وتبنت لغة جديدة أسرع انتشاراً، وأكبر تأثيراً، وأوسع تلقياً، إننا نقصد (الصورة)؛ لغة الصورة، لقد " أصبح عالم الصورة بكل سحره، يستقطب نظرات الناس الذين ينتمون إلى مجتمعات وثقافات شتى، وكاد إبهار الصورة وتأثيرها الفوري والفعال أن يطغى على وقع الكلمة المكتوبة، وأصبحت الصورة إلى حد كبير في الوقت الراهن، هي التي تشكل الوعي السياسي والاقتصادي والثقافي، لقد بدأت رحلة عولمة الخيال، ولا يستطيع الإنسان في الوقت الراهن أن يتنبأ بتأثيرها على مصائر البشر في القرن الحادي والعشرين"<sup>3</sup>، مكنت وسائل الاعلام، وشبكات التواصل بتقنياتها المرئية والصوتية، من استيعاب رغبات الإنسان وتوجيه أفكاره وأحلامه وأهدافه عبر ما تقدمه في شاشاتها من إغراءات وعروض توجي بتحقيق المتعة، وبلوغ اللذة بكل سهولة وسرعة، بما تثبته من تغذية للخيال، ورفع أفق التوقع إلى أقصاه من خلال استثارة الغرائز والنجاسات والفضول، الأمر الذي خلق حالة من النمطية في الأذواق، والتبعية في الأفكار والأهداف؛ "إن سيادة الصورة للعوالم المعرفية والثقافية وحد دولة الخيال عند شعوب العالم، إنها اللغة الموازية للغة المكتوبة، والأبلغ تأثيراً وتوجيهاً منها لخيالات البشر، فلقد أحدثت وسائل الاعلام والفضائيات والهجرة تفاعلاً قوياً في خلق الذوات والهويات بواسطة - فاعلية الصورة وإبهارها- وفي صناعة مخيلة واحدة تهندسها القوى المختلفة"<sup>4</sup>، بل أصبحت ثقافة إنسانية شاملة توجه الأذواق الجمالية، والتوجهات السياسية والخيارات الاقتصادية، فلكل غايته وأهدافه التي من أجلها يوظف الصورة، مستفيداً من التقنيات التكنولوجية المعاصرة وما تتيحه من إمكانيات التصرف بالتركيب والتحويل والدمج، كل هذا إذا ما خصصنا الحديث في الصور الرقمية، أو الصور التي تمت معالجتها بكيفية رقمية، تمنح

إمكانات لا نهائية أمام الفنان فيخرجها على النحو الذي يريد ويحملها التعبيرات التي يريد أن تحمل، فهو الذي يقطعها كما شاء ويعالج أجزاءها ويللم شعنها بما يجعلها متعددة الدلالة وقابلة للتشكيل على أنحاء مختلفة<sup>5</sup>، أي أنه يشحنها دلاليًا وفق الرؤية التي يبغى تبليغها وتوجيه المتلقي/المستقبل/المشاهد لها، حتى صار هذا الأخير محكوماً دون وعي منه بذوق معين، وموجه لفكر محدد، حتى صار "الحديث في العالم التكنولوجي المعاصر عن التداخي الحر للصور بدل الأفكار، فثمة طوفان بصري يغمر الناظر أو المشاهد، لا يترك له فرصة التقاط أنفاسه، ويصيب فكره بالخمول، فكلما تعرض لهذا السيل الغزير من الصور، بدءاً من شاشته الصغيرة وحاسوبه الشخصي إلى المصق الأشمالي، والاعلان الدعائي ازدادت سلبية حسه النقدي وازدادت تبعيته للصور النمطية"<sup>6</sup>، والحقيقة أن الصور تمثل طفولة الفكر البشري، ولغته الأولى، حيث بدأ الإنسان الأول يعبر عن ذاته ورغباته عبر النحت على الحجر في شكل رموز وأشكال مقتبسة من واقعه، ومغداً من خياله لذلك لا غرابة في انجذاب الإنسان للصور وسرعة استجابته لتأثيرها، فهي موروثه الأول الدفين في لا وعيه العميق؛ "... فقد تبادل الناس المعلومات في المقام الأول مشافهة. كانت الرسائل الشفوية ينقلها عداؤون لمسافات طويلة، واستخدم الناس قرع الطبول واستعمال النار، وإشارات الدخان للاتصال بالآخرين الذين يفهمون الرموز المستخدمة. كانت الصور والرسوم هي الخطوات الأولى نحو اللغة المكتوبة"<sup>7</sup>، لقد عملت الصورة في مقامها الأول عمل المنظومة التواصلية (الأولى) للإنسان، ومن هذا المنطلق يلح السؤال الحاحاً للتعمق في ماهيتها وعمق مدلولها وغاياتها، هذا بالنظر إلى المساحة الآخذة في الامتداد والتي صارت تحتلها الصورة في الثقافة المعاصرة، حيث غدت منافساً قوياً للكلمة التي كانت سبباً في انحسارها يوماً، وعادت بفضل ما أتاحتها لها تكنولوجيا المعلومات من إمكانات، حتى صارت اليوم ميسم العصر وعنوانه.

#### الأبعاد التواصلية للصور، وغاياتها الجمالية:

ليس بخاف على أحد أننا صرنا في عصر يعبر عنه بالقول إنه زمن الصورة بامتياز، وهذا القول ليس من قبيل المبالغة أو الترويج، بل هي حقيقة معاشة، ملموسة بشكل يومي في الحياة بمختلف مجالاتها ومستوياتها، ذلك أنه ومنذ "اختراع التلفزيون والسينما وتطور الوسائل السمعية البصرية بدأ يتبلور نوع من الصراع بين ثقافتين متباينتين: ثقافة الكلمة، وثقافة الصورة، ثقافة الكلمة هي ثقافة النخبة، ثقافة العقل (أو على الأقل الذهن بأساليبه الاستدلالية)، في حين أن ثقافة الصورة هي ثقافة الجمهور أو العمود الفقري للثقافة الجماهيرية، كما أنها ثقافة الوجدان والانفعال والغرائز، مبدئياً نقول إن ثقافة الكلمة هي امتداد للاستدلال العقلي، وإن ثقافة الصورة امتداد للإدراك البصري"<sup>8</sup>، أدى انتشار التقنية بوسائلها السمعية والبصرية، بداية بالتلفزة والسينما وصولاً إلى الحواسيب وشبكات الاتصال إلى جمهرة المعرفة وتعميم الثقافة، ومخاطبة كافة المستويات الاجتماعية والنخبوية منها والعامّة، لذلك كان لزاماً الاستعانة بلغة لها القدرة على النفاد والتأثير في جميع طبقات الجمهور، فكانت الصورة هي اللغة. ذلك أن الكلمات مكتوبة كانت أو منطوقة، فإنها

تنتهي إلى جهاز رمزي إحصالي يعتمد التأويل، أي الاشتغال على الآليات الذهنية المجردة، بينما الصورة، بهائها وألوانها الزاهية، فلا تتطلب مجهودا كبيرا في التلقي، إضافة إلى بعدها الذي (المتع)، فهي جذابة مغرية توحى بالاسترخاء ومتعة التلقي، ورسالتها متضمنة فيها أو هي رسالتها (الصورة=الرسالة)، بينما لو نظرنا إلى النص باعتباره متوالية من الكلمات، فإنه يتطلب تفكيك العلاقات القائمة بينها لتحقيق فهم ما<sup>9</sup>، فبفضل جاذبيتها وقوة تأثيرها، استطاعت الصورة أن تصدر وسائل التواصل عبر تقنيات التكنولوجيا المعاصرة.

إن لغة التقنية اليوم هي الصورة بمختلف أشكالها وتمظهراتها الثابتة منها والمتحركة، وهي وسيلتها التسويقية، ومادتها في صناعة النجومية، وتغذية الخيال الجمعي، وتوجيه خياراته، فإذا كان للكلمة سحر، فللصورة سحران، وما هي اليوم تعرف "... مآلا ومصيرا مذهلا في الزمن المعاصر، وبدأت تتبوأ مكانة رفيعة، وتستقل تدريجيا بذاتها، وتنفرد بمعجمها الخاص، وتؤسس لغتها الخاصة بمعزل عن الخطاب، ومن شأن هذا التحول الهائل أن يطرح مشكلات فلسفية عميقة حول وضعها ومكانتها في الثقافة المعاصرة... انتقلت الصورة من طور كانت فيه ذهنية إلى طور صارت فيه بصرية، بمعنى أنها بعدما كانت في خدمة غايات روحية أصبحت تحيل إلى ذاتها، إنها استحالت إلى وسيط مما يشرع الباب على مصرعيه على رهانات متعددة"<sup>10</sup>، لقد صارت توظف لذاتها، بوصفها لغة ودلالة، دالا ودلولا في آن واحد، هي الرسالة المبتغاة، وما هي اليوم لا تخلو شاشة منها ولا كتاب، في العلوم وفي الفنون والآداب. تسير الصورة جنباً إلى جنب مع الكلمة، وأحيانا تسبقها أو تكون بديلة عنها، تمارس سحرها في التأثير بما تحققه من فاعلية تواصلية سريعة وواسعة، فهي لا تحتاج مترجما لأنها لغة عابرة للحدود الزمانية والمكانية، ولعل هذه الخاصية هي ما أهلها لتكون لغة التكنولوجيا المعاصرة بتقنياتها الرقمية التفاعلية المختلفة؛ "... للصورة الرقمية انعكاسات على مقولتي الزمان والمكان، وتحول الزمان إلى حضور كلي ومباشر بلا ماض ولا حاضر. وتحول المكان إلى لا مكان ما دمنا في فضاء افتراضي لا وجود فيه للحدود، مما يستدعي إعادة بنائه"<sup>11</sup>، عززت التكنولوجيا دور الصورة ورفعت رصيدها الدلالي بما أكلت لها من مهام جديدة تتجاوز حدود الوقي الآني، الواقعي، إلى اللامحدود، إلى الافتراضي، المخترق لكل حواجز ممكنة؛ "والصورة على العموم، التي هي عماد وقوام ثقافة الصورة، كيان مرجعي قائم الذات، ممتد على نفسه، كأنه هدف في ذاته لا يحيل على شيء آخر، الصورة هي الغاية والمنتهى، هي البديل على العالم أو قائم مقام العالم العيني، بل إن الصورة توهمنا بأنها هي الواقع العيني ذاته، هذا العالم بخدعة خادع هو الذي ينتقل إلينا، في بيوتنا..."<sup>12</sup>، ولعل ما عزز هذه القيمة للصورة ومنحها الهيمنة على الثقافة المعاصرة هو علاقتها المتينة بالواقع الافتراضي، هذا الواقع البديل، المقابل للواقع الفيزيائي، ومجال امتداد الخيال من الذهن إلى واقع مرئي، لكنه في الآن نفسه خيالي غير مادي؛ "لقد غادرت الصورة عالم الواقع وانسحبت من جسد العالم La chair du monde حسب تعبير الفلسفة الظاهرية، لتلوذ بعالم الأشباه والنظائر، يقول رجليس دوبري: (لقد غادرت أعيننا شيئا فشيئا جسد العالم) بما أن الصورة

لا تحليل سوى إلى ذاتها، وبما أن العالم البصري لا يظهر إلا بقدر ما يخفي، نلغي أنفسنا في عالم الاتصال لا نشاهد سوى استعراض الصور، عالم يجعلنا لا نرى الواقع بقدر ما نرى واقعا يفوق الواقع هو بمثابة واقع افتراضي...<sup>13</sup> كذلك هي الصورة نموذج لانعكاس الذهني، الخيالي، اللاواقعي من عالم الخيال المجرد إلى عالم الخيال البصري المرئي، إنها انعكاس لصورة المحتمل، الافتراضي، المرغوب، المتخيل... في الواقع.

ولا غرابة أن يكون لهذا الانعكاس أثره على الواقع، بما يستثير من تفاعل ويحدث من أثر، مما يجعل الصورة لغة تواصل بامتياز في زمن التقنية: "تؤرخ الصورة لعالم صار فيه كل شيء بصريا أو يتجه إلى أن يكون بصريا visual... لقد أصبح العالم بفضل تكنولوجيا الاتصال طوع البنان، وفي متناول اليد بنقرة على الحاسوب... لقد تغير مفهوم الواقع نفسه إلى حد أننا ونحن أمام الصورة لا نرى الواقع، بل نرى الواقع منعكسا على الشاشة. لقد تراجع الواقع ليخلي مكانه للصور والنسخ..."<sup>14</sup> ، فكان الانعكاس، والبديل هي فلسفة هذا العصر، عالم جديد يتشكل، عالم بديل عن الواقع أو واقع آخر تنفجر على تخومه الخيالات وتحقق الرغبات التي لا يحققها الواقع الفعلي المعاش، لأنه ببساطة افتراضي، صناعي "وبعبارة موجزة، فإن الثورة المعلوماتية بخلقها لفضاء سبراني جديد تخلق في نفس الوقت نوعا جديدا من الواقع موازيا للواقع الفيزيائي اليومي، لكنه يتسم بعلاقة جديدة مع الفضاء والزمن، ونمطا جديدا من الكينونة يتراوح بين الحضور والغياب، بين الوجود واللاوجود"<sup>15</sup>، ففي هذا الفضاء الخصب للخيال استثمرت الصورة استثمارا واسعا، لما يجمعها وهذا الفضاء من قواسم مشتركة، بوصفها انعكاسا لصورة ذهنية، خيال حاضر/غائب، ... فأشككت الصورة بذلك على الفكر المعاصر، بسبب تعدد أشكالها واستخداماتها وغاياتها، فبين الصورة الفنية والصورة باعتبارها وسيطا إشهاريا، والصورة رمزا وعلامة يتم تركيبها وضبطها آليا، وتحويلها والتحكم في حجمها وألوانها وأجزائها زيادة ونقصا، أي صيرورتها إلى حالة إنتاجية بعد أن كانت فكرة ناسخ ومنسوخ، توسع نطاق الصورة وتطورت وظائفها وإمكاناتها، وفي هذا الإطار "يمكن أن نزع أن الصورة تطورت عبر ثلاث لحظات أساسية: لحظة العبادة والتبجيل نظرا لوظيفتها في مقاومة الموت والتلاشي، ولحظة الإدانة الأفلاطونية لها باعتبارها تنتهي إلى عالم الأشباه، ولحظة تبوءها مكانة رفيعة في عالم الاتصال، خاصة بعد أن حررت التكنولوجيا المعاصرة الصورة من سلبياتها، فلم تعد نسخا وإنما صارت توازي ما ينتج الشيء المنسوخ"<sup>16</sup> لقد صارت الصورة بفضل تكنولوجيا المعلومات لحظة تجلي وخلق، حالة استمرارية الوجود في الحين واللحظة؛ لغة تتجاوز الجغرافيا لا تحتاج ترجمانا، أرض خصبة للتأويل، مادة للتسويق، وسيلة للتعبير، ومجال للتواصل والتفاعل.

#### - الفضاء الافتراضي بين الخيال والواقع:

من أهم مستحدثات التقنية في واقعنا المعاصر: العالم/الفضاء/المجال/الحقل الافتراضي على اختلاف التسميات، فالأهم هي فكرة الافتراضية، أي الخيال نقيض الواقع، غير أن اللافت هو تسمية هذا الخيال بالواقع الافتراضي، أي الاعتراف به كواقع متحقق، يتجسد من خلال الحضور

والوجود رغم وسمه في المقابل بالافتراضية الأمر الذي من شأنه أن يخلط بعض المفاهيم في منظومتنا المعرفية والفكرية، ويعمق سؤالنا عن حقيقة موقع التقنية في حياتنا وإلى أي مدى هي مركزية أو هامشية في علاقتها بوجودنا ووعينا للأشياء من حولنا " وإذا ما استعنا بمقاربة هيدغر من أجل مساءلة التقنية المعاصرة، سيتبين لنا أن التقنية المعاصرة هي أكثر من ترسانة من الآلات والأجهزة، بل هي بالأحرى نمط من أنماط انكشاف الوجود...<sup>17</sup> فليست التقنية ملحقاً بالحياة، ليست إضافة دخيلة لنتبناها أو نقرر الانفصال عنها في حياتنا، إنها أكبر من ذلك؛ هي أسلوب حياة ونمط وجود، تتغير على تخومها مفاهيم الكينونة وأنماط الوجود والتجلي في بحر ما خلفته من عوالم جديدة يتداخل فيها الواقع بالخيال، الحضور بالغياب، والحديث هنا يدور حول الفضاء الافتراضي " هذا الفضاء الذي تمت شكلته بصورة كاملة وأخضع لسيطرة المتلقي الكاملة، وخلقته تقنيات الواقع الخبي، وأطلق عليه مصطلح الفضاء السبراني (Cyberspace) الذي يمكن التحكم به تماماً وتحريكه من قبل بناء العوالم الخيلية والمبرمج، ويمكن أن يعرف هذا الفضاء كمملكة للأحاسيس، وتأتي كثافته فقط من حضور مشترك أو أكثر، تتحول الكيانات الرياضية للفضاء الخبي من أجلهم، إلى قرائن لوجود أشياء واقعية<sup>18</sup> لذلك لا يمكننا أن نسي هذا المجال/الفضاء/الواقع الجديد بالخيالي، إنه واقعي بقدر ما هو افتراضي قريب برغم بعده، حقيقي وإن كان لا يلمس، فلكل حياة واقعية حقيقية وجه افتراضي هلامي أقرب للخيال، وعلى أثريات هذا الفضاء تقلص المكان وانعدم الزمن، هو فضاء الآني اللحظي " الافتراضي ينشئ بنوع جديد من الوجود، وبالعلاقة جديدة مع المكان، فهو موجود في مكان ما هناك، ظاهرة طريفة وغريبة، وهو في نفس الوقت وجود ولا وجود، حضور وغياب هنا وهناك...<sup>19</sup> فالافتراضية بذلك تطرح ظاهرة جديدة وغريبة في آن، إنها فك الارتباط بالمكان وتقديم شكل آخر للوجود المنفصل، فداخل فضاءات هذا المجال لا يمكن القبض على ثابت مادي موجود بشكل واحد، بل هو وجود في اللاوجود، أشبه ما يكون بالصور الذهنية أو الخيال؛ "... يمكن القول أن مع تكنولوجيا الاتصال انتصر المباشر على ما عداه، والحاضر على المؤجل، والآني واللحظي على الدائم الممتد والديمومة، والعاجل على الآجل، ومن ثم تركز انتصار المنفصل Discontinuu على المتصل Continu<sup>20</sup> حيث صارت العلاقات بالافتراضي أقوى من العلاقات الواقعية؛ تعارفاً، تعليماً، تجارة، أخباراً، شهرة... تغير مفهومنا للواقع نفسه، فلم يعد هو ذاك الحضور المادي للموجودات داخل حيز مكاني محدد وفق ترتيب زمني متعلق بالمنطق والفيزياء، لم يعد الواقع نقيض الخيال، بل صاراً وجهان لعملة واحدة، كما ذهب إلى ذلك بيرليني " ليس الافتراضي نقيضاً للواقعي، بل بالعكس من ذلك إنه نمط وجود خصب وقوي، من حيث إنه يطلق العنان لسيرورة الابداع، ويفتح المستقبل، ويفجر ينابيع المعنى من تحت سطحية الحضور الفيزيائي المباشر<sup>21</sup> وقد يتحول بفضل ما يتوفر عليه من إمكان إلى بديل عن الواقع الفيزيائي وفي مواقف كثيرة.

صار الواقع في تكنولوجيا الاتصال الحديثة وبفضل الثورة الرقمية واقعا فائقاً Hyperealite

في حل من جاذبية الواقع، وفي غنى عن مدار الواقع وفلكه... خاصية هذا الواقع الافتراضي هو أنه لا مادي، بمعنى أنه لا امتداد فيه، ولا مسافات ولا حدود، ثم إنه واقع يتمتع بقابلية أن يصنع صنعا في الحاسوب...<sup>22</sup>، واقع فائق فاق الموجود باللاوجود، استولى على الكينونة بما سخر لها من الحرية المطلقة، وفتح أمام الكائنات على أثيره أبواب الانعتاق من أسر المسافات وضوابط الزمن وقوانين المادة، منح مستخدمه المبحر فيه إمكانية صنعته وفق متطلبات ذوقه وحاجاته، هذا الكلام وان بدا فيه شيء من المبالغة، فهو ليس كذلك؛ إنه حقيقة. فلكل انسان اليوم واقعه الافتراضي ومجاله الخاص الذي يصنعه بما يتماشى وذوقه، من حيث وظائفه واستعماله وإمكاناته وعلاقاته، فهناك من يصنع مجالا لترويج سلعه، وهناك من يفتحه طلبا للتسلية والترفيه، وغيرهم لنشر فكرهم أو تسويق برنامجهم السياسي.... يكاد لا يخلو وجود واقعي من نظير افتراضي؛ أفرادا، مؤسسات، دول ومنظمات.... واللافت أن النشاط على الواقع الافتراضي أكبر وأوضح، وأكثر مردودية، ان على صعيد العلاقات الإنسانية أو التجارة والمال، أو حتى النشاطات السياسية، والفنون الإبداعية....

إن الحديث عن حقيقة هذا الفضاء الجديد متشعب وشائك، لا يمكن حصره في زاوية واحدة، فبين مشجع مستبشر بإمكاناته وإغراءاته وبين متوجس مرتاب لا يرى فيه غير التيه وفقدان لكل مرجعية ومصادقية، تتجاذب المواقف والأفكار شرح سر هذا المجال الذي هو في الحقيقة ثمرة من ثمار الحوسبة والرقمنة، وهو بذلك متموقع في مكان بيني؛ "بين الخيالي والواقعي، فيختلف عن الأول في كونه قابل للتحقق، ويختلف عن الثاني في كونه حامل لممكنات لا نهائية، وفي العالم الافتراضي يصير كل شيء قابل أن يركب ويعد تركيبة إلى ما لا نهاية، كما أنه يمنح إمكانية القيام بالفعل اصطناعيا، أو على نحو اصطناعي كما هو حال ألعاب الفيديو..."<sup>23</sup> هذه الإمكانيات هي عنصر الاغراء في الفضاء الافتراضي، والتي تجعله بالنسبة للكثير ميدانا خصبا للإبداع والتجديد، وهو في النهاية انتقال من نمط وجود إلى وجود من نوع آخر جديد ومختلف، وحامل لممكنات لا نهائية مقارنة بالواقع المادي، غير أن ذلك لم يشفع لهذا الفضاء من الالتفات إلى عديد النواقص والسلبيات التي جرها الافتراضي على مستوى الاعتداد بالقيم والأماكن والعلاقات لذلك لا ننفي أن "في الوقت الذي ساهمت فيه وسائط الاتصال في إزالة الحدود وفي تقليص وانكماش المكان فإنها أحلت محله أمانة زائفة، أمانة متشابهة ومتماثلة، أمانة لا فرق بينها، أفرغتها من شحنتها الانفعالية من رمزياتها وشخصيتها مثل المطارات والأسواق الكبرى، إنها أمانة لا ميزة لها سوى كونها مررات عبور لحشود المسافرين الهلامية التي لا يتعرف فيها شخص على آخر. فقد المكان خطوطه التوجيهية وصار مكانا بلا معالم ولا ملامح ولا سمات خاصة. لقد أصبح المكان افتراضيا مع ازدهار تكنولوجيات الاتصال، وهو ما نسميه اليوم الفضاء السيبرنيتيقي Cyberspace"<sup>24</sup> لم يعد للمكان قدسية أو قيمة لتحقيق الكينونة، لقد صار فضاءات هلامية تسبح فيها كائنات إلكترونية ذات احداثيات رياضية تتحكم فيها التكنولوجيا الرقمية، تداخلت القارات والبلدان والأحياء واجتمعت في غرف افتراضية للردشة والتواصل الأثيري اللامحدود، وطغى بذلك الوقت والآن بعد تقليص الزمن وتجاوز المسافات، وطفئت

الثقافة البصرية على ما عداها، ولا شك أن لطغيان هذه الفكرة تداعيات عدة أولها هيمنة الحاضر والآني والوقتي، واللحظي على مجال الإدراك فلا مكان لظهور الما قبل والما بعد إلا لتكريس حاضرا لا ينقضي ولا ينتهي، حاضر ما يفتأ يحضر وكأن لا سابق له ولا لاحق، والنتيجة كما يراها اف ميشو في كتابه أزمة الفن المعاصر هي تطور نمط من الإدراك هائم ومؤقت بلا ذاكرة ومحكوم عليه بأن ينخرط في حاضر دائم<sup>25</sup>... قلصت ثقافة المشاهدة المسافات واختزلت الأمكنة، كما ساهمت التقنية الرقمية في زيادة هذا الاختصار والتقليص حتى صرنا نتحدث عن فضاء جديد يوسم بالافتراضية أو السيبرنتيقي cyberspace، وهو افتراضي فارغ من كل شحنة دلالية وغير مشخص ولا قابل لئ يكون، لا هوية له ولا ذاتية، فضاء نكرة. أو كما ينعتة رجليس دوبريه بوصفه لا مكان ولا فضاء Non- lieu;Non espace على غرار المطارات والأسواق الكبرى ومحطات القطار، فكلها موسومة بلا هوية حسب تعبير دوبريه Lieu non identifiables et desidentifiants... يبشر الفضاء السيبرنتيقي بالقرب والدنو، حيث يكون فيه كل واحد قريب من الجميع، لا وجود فيه لحدود وطنية أو جغرافية، يتخذ فيه كل واحد لنفسه صديقا في أي مكان من العالم عن طريق الدردشة chat والمدونة blog والموقع الشخصي facebook... غير أن المفارقة الكبرى هي وإن دنت المسافات وانمحت الحدود ازاد البون وتعمقت الفوارق بين الأشخاص وزادت القطيعة. لأنه في النهاية فضاء افتراضي يغلب فيه الخيال عن الحقيقة<sup>26</sup>.

### الهوامش:

<sup>1</sup> زهير الخويلدي: "ميديولوجيا الصورة وعرض جمالية الوجود" 2152 <http://www.annabaa.org/arabic/arts/> ،

2015/05/18

<sup>2</sup> عبد العالي معزوز: فلسفة الصورة؛ الصورة بين الفن والتواصل، إفريقيا الشرق، المغرب 2014، ص: 146

<sup>3</sup> السيد ياسين: "صياغة الهوية وعولمة الخيال" مجلة جرش الثقافية، الأردن، عدد 03، 2005، ص: 31، نقلا عن:

صفية عليّة: النص الأدبي في ظل العولمة، أطروحة دكتوراه، 2016، ص: 26

<sup>4</sup> صفية عليّة: النص الأدبي في ظل العولمة، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكرة، 2016، ص: 26

<sup>5</sup> ينظر عبد العالي معزوز: فلسفة الصورة، ص: 34

<sup>6</sup> المرجع نفسه، ص: 150

<sup>7</sup> إبراهيم حسن أبو حسنية: التواصل في القرآن الكريم، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط 1 2014، ص: 20

<sup>8</sup> محمد سبيلا: زمن العولمة، ص: 68

<sup>9</sup> ينظر المرجع نفسه، ص: 69

<sup>10</sup> عبد العالي معزوز: فلسفة الصورة، ص: 143

<sup>11</sup> المرجع السابق، ص: 36

<sup>12</sup> محمد سبيلا: زمن العولمة، ص: 69

<sup>13</sup> عبد العالي معزوز: فلسفة الصورة، ص: 212.213

<sup>14</sup> المرجع نفسه، ص: 212

<sup>15</sup> محمد سبيلا: زمن العولمة، ص: 72

<sup>16</sup> عبد العالي معزوز: فلسفة الصورة، ص: 143

<sup>17</sup> المرجع نفسه، ص: 23

<sup>18</sup> فريال مهنا: علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية، ص: 412

<sup>19</sup> محمد سبيلا: زمن العولمة، ص: 71

<sup>20</sup> عبد العالي معزوز: فلسفة الصورة، ص: 137

<sup>21</sup> المرجع نفسه، ص: 225

<sup>22</sup> ينظر المرجع نفسه، ص: 139، 140

<sup>23</sup> المرجع نفسه، ص: 224

<sup>24</sup> المرجع نفسه، ص: 139

<sup>25</sup> عبد العالي معزوز: فلسفة الصورة، ص: 24

<sup>26</sup> ينظر المرجع نفسه، ص: 212، 214.